قبل الميعاد . . دائما !

وأذكر كذلك أن أول مرة أكتب أنا فيه مقالا باللغة العربية نشره لى فى مجلة الهلال ، وكان يشجعنى كثيرا على الكتابة بالعربية وكنت أراجع كتاباتى معه إذ كنت أجلس أمامه على مكتبه وأقرأ له ما كتبته بصوت عال وكان يحدد أنه يريد القراءة مُشَكَّلَةً . والصفحات التى أكتبها الآن هى أول شىء أكتبه بالعربية بعد وفاته ولن يراجعه هو معى كما جرت العادة بيننا .

المهم أنه أحيا مجلة الهلال وجعل لها حضورا فى السوق لذلك عندما طلب منه رئيس تحرير مجلة أكتوبر – وهو كاتب عظيم وصديق قديم لأبى وهو بالمناسبة من الكتّاب المفضلين لدى منذ قديم الزمن ومعه إحسان عبد القدوس ونجيب محفوظ ويوسف إدريس رغم اختلاف كتاباتهم – أن ينضم لدار المعارف لم يتردد كثيرا لأنه رأى أنه كان حقق ما يريد تحقيقه وهو أن يعيد إثبات وجود مجلة الهلال وكتاب الهلال ورواية الهلال فى السوق تقديراً لمن تعلم منه وعمل معه أيام زمان أى أيام جورجى زيدان . وبهذ المناسبة أذكر أنه استمر على صلة وثيقة بإميل زيدان وكان يرا تقريبا كل عام بالإسكندرية حيث كان يقيم .

أذكر أن أبى كان دائما يبدأ أعماله بأهداف معينة يريد أن يحققها وأنه
ندما كان يحقق الغرض الذى كان ينويه لم تكن من الصعب عليه أن
رك « كرسى السلطة » فالمناصب فى حد ذاتها لم يكن تهمه بل كان
يتم أكثر بالامتيازات المرتبطة بالمناصب التى كانت تساعده على تحقيق
في خياله ، فلم أسمعه قط يقول إنه يتمنى لنفسه منصبا معيّنا أو أنه يريد
، يكون رئيسا لمؤسسة أو وزيرًا مثلا – وهو حلم الكثيرين اليوم – فلم
ر هذا بباله فكل اجتهاداته كانت من أجل العلم فى سبيل تحسين
وال مصر وتثبيت أهميتها ومكانتها بالنسبة للعالم وخلال حياته كلها
ن يضع لنفسه أهدافا يحققها من أول فكرة إنشاء معهد مصرى
راسات الإسلامية فى مدريد في الأربعينات ومشروع الألف كتاب
ارة الثقافة فى الخمسينات إلى أطلس تاريخ الإسلام فى الثمانينات .

كان لأبى إلى جانب الصحافة فى هذه المرحلة من حياته عمله
شمل وهو محاضراته فى الجامعة ثم إشرافه على رسائل من أراد
يتقدم لدرجة الماجستير أو الدكتوراه ، وكان يشرف بالفعل
رسائل داخل مصر وخارجها . أذكر أنه كان صبورًا جدًّا
طلابه ويستمع لما كتبوه كلمة كلمة .. ولا يصحح لهم
مات والأخطاء اللغوية بل كان يمرنهم على اكتساب أسلوب
الكتابة .

إلى جانب الجامعة كانت لديه المجالس التى كان عضوًا فيها
ن كثير الانتظام فى حضور جلساتها مثل المجلس الأعلى

للصحافة . والمجلس الأعلى للثقافة حيث كان يحضر الجلسات في أول يوم أحد من كل شهر – على ما أظن – وكف عن حضور اجتماعاته في آخر ثلاث سنوات ونصف من عمره أي منذ شهر ديسمبر ١٩٩٢ . وكان كثير الامتنان لأمين المجلس الحالي الذي أحدث إحياء حقيقيا في الحياة الثقافية المصرية والذي كان أحيانا يسأل أبي تليفونيا عن أمور تخص أعمال المجلس الأعلى للثقافة . كان أبي يقدر مثل هذه المعاملة جدًّا .. وبالذات أنه من يوم أن اضطر لملازمة البيت لسبب صعوبة المشي على قدميه لم يسأل عنه إلا من كان يقدره فعلا أو كان صديقا حقيقيا له والحمد لله كانوا كثيرين ، أما بعض الناس الذين كنا نعتبرهم مقربين إلينا فاختفوا من خريطة حياتنا تماما . أظن أنني ذكرت في هذه الصفحات من قبل أن الزمن والموقف قديران على أن يكشفا حقيقة الناس فليس هناك شيء يستمر خافيا إلى ما لا نهاية وهذا كان رأى أبي

أما المجلس الثالث الذي كان يحب حضوره حقيقة فكانت اجتماعات مجمع اللغة العربية حيث كان يذهب يوم الاثنين من كل أسبوع ، وكان يتجه إلى هناك على قدميه إذ مقره قريب من البيت . وعندما بدأ يشكو من آلام في ركبتيه أصبحت أمي ترافقه فكان يمسك بذراعها ويمشيان معًا المسافة . والجميل في هذا الموضوع أنه بعد أن منعته آلام الركبتين من الذهاب شخصيا إلى المجمع استمر الدكتور ابراهيم مدكور رحمه الله وبعض أصدقائه وزملائه هناك يسألون عنه تليفونيا بصفة مستمرة .

وكان يلتزم بالمواعيد فى حضور جلساته هذه فيصل دائما قبل الميعاد المحدد ولا يتغيب عن الاجتماعات ولا أتذكر أنه تأخر مرة في حياته عن أى ميعاد محددة فالمواعيد بالنسبة له كانت تحترم لأن احترام المواعيد يعبر عن احترامه للشخص الذى سيقابله وكذلك كان تعبيرا على احترامه للعمل الذى سيقوم به . وكان لذلك يغضب كثيرا إن حدد له أحد ميعادا وتأخر عنه ساعة أو أكثر – كما هى العادة فى مصر عند كثير من الناس – ويصل معتذرا بكلمة « معلهش » . كان فى هذه الحالات يتجنب المواعيد مع مثل هذا الشخص ، واحترامه للمواعيد يرجع إلى ان الوقت فى حد ذاته كان يمثل له قيمة معنوية وأخلاقية . كان أيضا يحتقر الصفات الدنيئة فى الإنسان مثل الكذب والنفاق واللؤم والغدر والسرقة وصفات أخرى يعتبرها البعض اليوم صفات تضفى « شطارة » وذكاء لصاحبها .

أما أمى فكانت توافق أبى فى جميع آرائه فلو سألتها أنا عن رأى فى شيء كانت تقول : « استمعى لأبيك فهو لديه الرد الصح والرأى الصح فى كل شيء » كانت تؤمن بآرائه وتصرفاته دائما .. وكانت دائما مقتنعه تماما بما يقوله وكان هذا موقفها منه منذ تزوجا حتى آخر يوم فى حياته . أما هو فكان يثق فى رأيها خصوصا فيما يخص آراءها عن بعض الناس ، فإن سألها عن شخص معيّن كانت ترد وتقول على سبيل المثال : « الظاهر منه مقبول ولكننى أشعر فى أعماق نفسى أنه منافق وغير صادق » ..

كانت تستند فى هذا على مانسميه « الحاسة السادسة » وتمر الأيام بل السنوات ويتضح أن أمى كانت على حق . وأكثر ما كنت أحترمه فى العلاقة بينهما الصراحة والثقة التى كانا يتبادلانها ولم أشعر أبدا أن هناك حواجز تقف بينهما أو سيطرة من طرف على الآخر .

أما فترات بعد الظهر فكان يخصصها أبى لعمله العلمى الخاص وكان يجلس على مكتبه تقريبا من الساعة الثانية حتى الثامنة مساء بصفة متواصلة . وأنتج فى هذه المرحلة من عمره مؤلفات عديدة فى تخصصه وهو التاريخ الإسلامى ومنها أعمال أدبية ثم مؤلفات دينية يربط فيها ما بين الدين الإسلامى وحياتنا اليومية ، هذا إلى جانب أبحاث عديدة اشترك بها فى مؤتمرات ، ومقالات عديدة ساهم بها فى مجلات الهلال وأكتوبر والشباب ومن أهم إنجازاته كان أطلس تاريخ الإسلام (١٩٨٧) وتاريخ قريش (١٩٨٨) وسيرة الرسول محمد ﷺ بالإنجليزية (لم ينشر بعد) وأذكر من أعماله الأخرى على سبيل المثال أحاديث منتصف الليل (١٩٧٧) ، قصة أبو عوف (١٩٨٠) ، ابن بطوطة ورحلاته (١٩٨٠) ، دراسات فى السيرة النبوية (١٩٨٥) ، الربا وخراب الدنيا (١٩٨٦) ، حكايات من أيام زمان أربع روايات قصيرة (١٩٨٧) ، الإسلام الفاتح (١٩٨٧) ، تاريخ المغرب وحضارته (١٩٩٠) ، الكعبة المشرفة والاعتداء عليها (١٩٩١) ، دستور أمة الإسلام (١٩٩٣) ، الإسلام فى عشرين آية (١٩٩٣) ، عصر الفتوات (١٩٩٣) ،

جيل الستينات (١٩٩٢) ، صور من البطولات العربية والأجنبية (١٩٩٣) ، تاريخ موجز للفكر العربى (١٩٩٣) وغيرها .. ثم نشر أيضا بعض التحقيقات العلمية مثل كتاب الحلة السيراء لابن الأبار (١٩٨٥) وكتاب أخبار العصر فى انقضاء دولة بني نصر لمؤلف مجهول (١٩٩١) وكتاب طبقات الأمم لصاعد الأندلسى (تحت الطبع) وغيرهم . ثم ألف كذلك كتبا للأطفال مثل كتاب المخترع الصغير فى جزءين (١٩٨٩) .

إننى ذكرت هنا بعض الأعمال الأدبية لأبى وهى معظمها مجموعات قصص قصيرة وروايات قصيرة من نوع « النوفيلا » . وأذكر أنه كان يعتبر نفسه هاويا بالنسبة للكتابات الروائية فلم يسمح له وقته أن يعطى لكتابة الأدب وقتا أكثر لكى يتطور وأذكر أنه كتب رواية واحدة فى الخمسينات اسمها أهلا وسهلا (١٩٨٥) ومسرحية فى ثمان مشاهد اسمها الطريق الأبيض (١٩٦٣) . موهبة التأليف الأدبى كانت لديه ولكن – كما يقال – كل شىء له حدوده .

وهنا أقف وقفة وأتساءل بدون أن أقصد إحراج أحد أو إلقاء اللوم : هل يكفى تكريم مثل هذا العطاء الثرى المتواصل لمصر بجائزة تقديرية فحسب ؟ إن أبى توفى منذ عام تقريبا ولا ألاحظ أى مبادرة من قبل أى هيئة حكومية لتكريم اسمه وتخليده إلاّ من قبل دار المعارف لماذا يا ترى ؟ وماذا يكون مصير مصر بدون

رجال من طراز أبى ؟ وما هو رأى الشباب الطموح اليوم عندما يرى أن هذا جزاء من عمل فى سبيل بلده ؟ !

إننا فى خلال فترة إقامتنا فى الكويت وحتى بعد عودتنا إلى مصر نهائيا كنا نمضى العطلة الصيفية فى الإسكندرية . واستمررنا فترة طويلة نقيم بفندق « بوريفاج » بجليم وبعد أن باعه صاحبه حولنا إقامتنا إلى فندق « فلسطين » بالمنتزه ، وكان أبى لا يعمل خلال شهر أغسطس بأكمله حتى يستعيد قوته للسنة القادمة . أما أمى فكانت تستريح لفترة شهر من أعمال البيت ومطالبه وكان أبى قد اختار هذين الفندقين : لأنه كان يعلم أن معظم أصدقائه كانوا ينزلون فيهما وأذكر أنه كان يحب جداً فندق « بوريفاج » ، لأن أحد أعز أصدقائه كان يقيم فى شقة قريبة منه ، فكان فى استطاعته أن يراه كل يوم وكان يتذكر مع صديقه هذا طرائف ونوادر من أيام زمان . فكان -- على سبيل المثال -- يذكر صديق أبى ما حدث فى السفارة بروما فى إيطاليا عندما كان سفيرا هناك من سنة ١٩٦١ حتى ١٩٦٧ . وذكره بأشياء بعيدة فى الزمن مثل واقعة الجاسوس الإسرائيلى فى عام ١٩٦٢ .

ويحكى لنا أكثر من مرة أن الحكومة المصرية حينذاك كان لها قسم للمخابرات فى كل سفارة مقيما بذاته ولا دخل للسفير فى عمله . وكان بالسفارة فى روما قسم للمخابرات يعمل فى الطابق الثانى من المبنى . وحدث أن رئيس قسم المخابرات هذا لفت نظر السفير حينذاك -- وهو صديقنا - أن الأمن بالسفارة غير كاف

أبي مع الأستاذ صالح جودت عند زيارته لأسبانيا

وأنه يقترح بأن ينضم بعض رجاله – وهم كثير – إلى رجال الأمن عند بوابة دخول مبنى السفارة ووافق صديقنا السفير على ذلك .

وبمجرد أن وافق قام رئيس مكتب المخابرات المصرى هناك بالقبض على أحد الجواسيس الإسرائيليين فى روما فى السر وأدخله في الخفاء داخل السفارة . ثم حقنوا هذا الجاسوس بمخدر وأدخلوه تابوتا وفكروا أن يشحنوه إلى مصر بالطائرة المصرية . قام رئيس المخابرات المصرى بالسفارة بكل هذا بدون أن يخبر بذلك صديقنا السفير وبما أن بعض رجاله كانوا يقفون مع حراس أمن السفارة على بوابة الدخول فاستطاع أن يعمل فى السر .

وحدث أنهم وضعوا التابوت وبداخله الجاسوس المخدر داخل سيارة نقل . وكان الطريق من مقر السفارة إلى المطار طويلا جداً ومليئا « بالمطبات » . فأفاق الجاسوس الإسرائيلى من المخدر وهو داخل التابوت . وعند إخراج الصندوق فى مطار روما لشحنه على الطائرة المصرية سمع رجال البوليس الإيطالى صراخ الجاسوس داخل الصندوق وكان المخبرون المصريون يقولون لهم إنها أصوات آلات موسيقية يرسلونها إلى مصر . فأصرت السلطات الإيطالية على فتح الصندوق وأفرج عن الجاسوس من حبسه وكانت مسألة محرجة وبالذات أنه لم يعرف أحد أن هؤلاء المصريين مخبرون ، فكانوا يستعملون أسماء « حركية » ويظهرون أمام كل الناس على أنهم من أعضاء السلك الدبلوماسى المصرى .